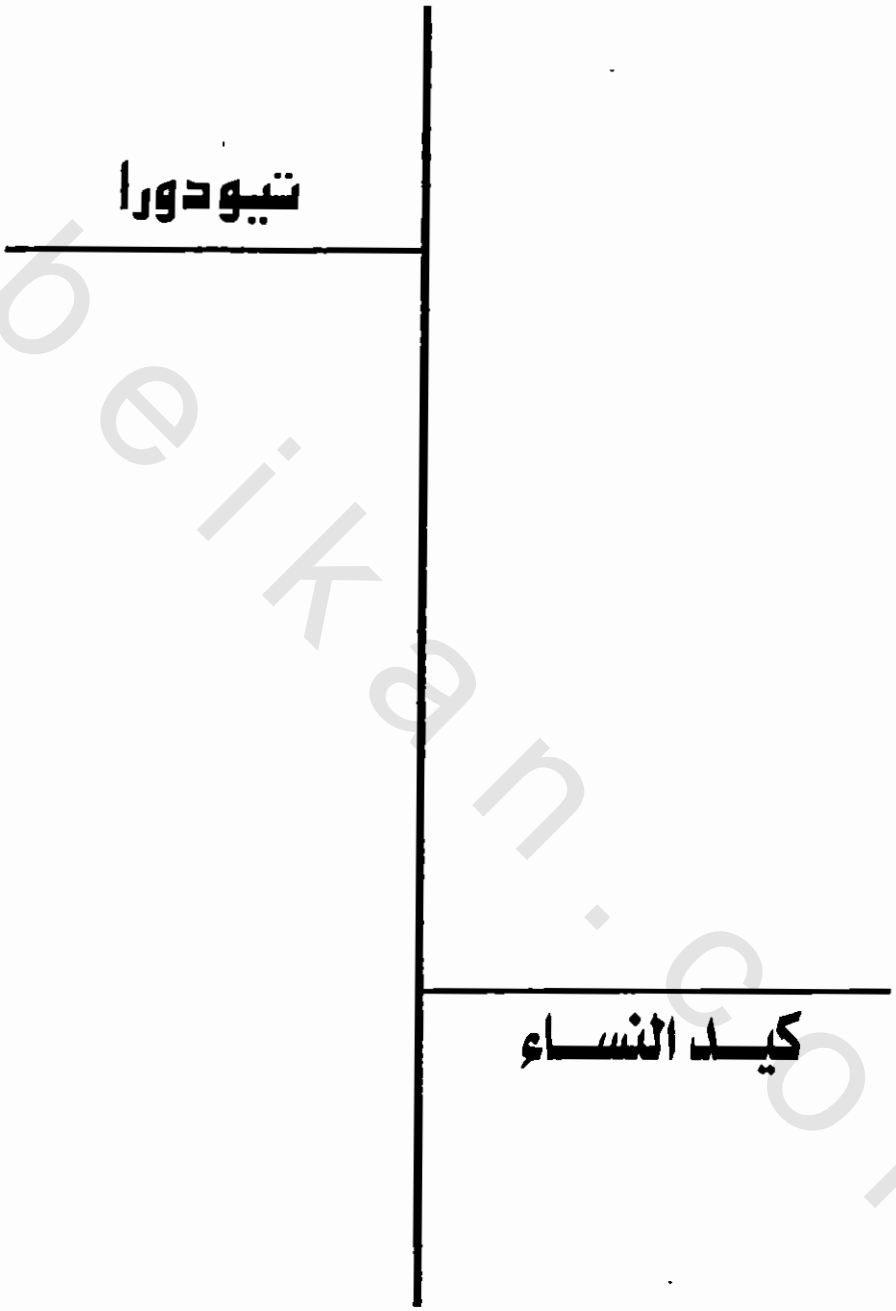

obeikan.com

obeikan.com

تيودورا
إمبراطورة الانتقام

لاشك أن النشأة تؤثر في الإنسان وفى علاقاته بكل من حوله مهما تغيرت معطيات النشأة ، فالمريض الذي لا يُحصِّنه دين يحقد على الأصحاء ، وكذا الفقير ويظل في ذهنه الطريقة التي كان يتعامل بها معه الناس منذ الصغر وهذا ما حدث بالفعل مع (تيودورا) أى "هبة الرحمن" التي نشأت في أسرة تحت خط الفقر بمسافة بعيدة - أب وأم وشقيقتين - كان حلم أبيها أن يوفر لقمة العيش لأسرته الصغيرة وهذا ما دفعه للرحيل إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

كأى طفلة حلمت الطفلة الصغيرة فائقة الجمال بأشياء كثيرة ظنت أنها ستتحقق بوجودها في المدينة الكبيرة لكن لم تتحقق لأن والدها لم يجد عملا ، وظل عاطلا حتى تبسم له القدر ووجد عملا لم يدرك وقتها أن هذا العمل الذي فرح به ليوفر نفقات أسرته هو العربة التي سيركبها إلى العالم الآخر ، فلم يكن ذلك العمل سوى مروض للدببة ولم يستمر الأمر طويلا حيث هاجمه أحد الدببة ولم يتركه إلا جثة هامدة .

عادت الأسرة لتعانى من جديد لتوفير القوت الضرورى لبقائهم على قيد الحياة في المدينة الصاخبة وهم يرون الأغنياء في الحانات والبيوت يرفلون في النعيم ويعيشون حياة البذخ دون أن يمد إليهم أحدا يده بكسرة خبز ، ولم تحتمل الأم كثيرا فقد داهمتها الأمراض ولحقت بزوجها إثر وعكة صحية دون أن تجد ثمن الدواء وتركت بناتها الثلاث بلا عائل و لا مأوى ، ولم تجد الفتاة الصغيرة حلا لتوفير الطعام لأختيها سوى العمل بالحانات كخادمة أو مهرجة في السيرك ، حتى بدأت تحترف مهنا أخرى كالرقص والتمثيل في المسارح الشعبية الممتدة على شواطئ البسفور بين الرعاع والصعاليك المخمورين الذين ينهشون

جسدها النحيل بأعينهم ويدفعهم إلى ذلك حسنها الفائق .

لم تكن (تيودورا) راضية بحياتها تلك وهو ما جعلها تحقد على المجتمع الذي لا يرحم الفقراء ، وذات ليلة قبض عليها رجال الشرطة وأصدر محافظ المدينة المتسلط قرارا بوسمها في كتفها بسيخ من الحديد يحمى في النار ليتم التعرف عليها بواسطته باعتبارها فتاة ليل وهذا ما ضاعف حقدها على المجتمع بالكامل .

بعد طول معاناة يبتسم القدر لتيودورا حين لجأت الصديقة لها كانت تعمل معها في أحد المسارح الشعبية وكانت على علاقة سابقة بالأمير "حستنيان" ولى العهد أيام شبابه حين كان يتردد على تلك المسارح وأعطتها صديقتها خطاب توصية للأمير ليوصى لها أحد أصحاب المسارح الكبيرة للعمل لديه ، لكن عليها أن تحاول الوصول إلى الأمير .

لم يكن ذلك أمرا صعبا على فتاة في جمال وذكاء تيودورا ، وبالفعل استطاعت أن تحتال على الحراس حتى وصلت إلى الأمير المهووس بالنساء الجميلات منذ صغر سنه ، وفوجئ الأمير - الذي اختاره عمه ليكون وليا للعهد - بفتاة فائقة الجمال أمامه وكانت قد عرفت من صديقتها هوسه بالفتيات الجميلات فخطر ببالها أن تستخدم أسلحتها كأنثى حين رأته يفترسها بعينيه ، وحين سألها عما تريد ردت عليه بأنوثة طاغية ودلال أنها تريد أن يتوسط لها في العمل بأحد المسارح الكبيرة - وألقت الطعم بعد ذلك - وأنها مضطرة لذلك وأنها لا تحب هذا العمل ، وبلع الأمير الطعم وهي تركز بعينيها الجميلتين بدلال في عينى الأمير الذي قال لها: لن تعملى في هذه الأماكن بعد ذلك بل ستبيقين معى .

لم تكن (تيودورا) تحلم بذلك لكنها وجدت الفرصة أمامها ، فأحسنت استغلالها ، ولم تبق في قصر الأمير كخادمة أو محظية رغم أنها

ما كانت تحلم بذلك، بل إن القدر أعطاها أكثر مما يمكن أن تحلم فقد أصبحت زوجة للأمير - ولي العهد - الذي تمكن من الحصول على موافقة من الإمبراطور بإلغاء القانون الذي يحرم زواج الخاصة من عامة الشعب وخاصة الراقصات والمغنيات، ولعل الحالة التي بلغها الإمبراطور من الشيخوخة والوهن ساعدا الأمير في ذلك، واشتد المرض بالإمبراطور ولم يعد قادرا على تسيير الأمور فترك للأمير إدارة شئون البلاد واقتصرت مهمة الإمبراطور على توقيع الوثائق وختمها.

كانت فرصة لتيودورا لاستخدام ذكائها في أن يتسلم زوجها العرش بسلام وعملت بدهائها على إبعاد المتربصين بالأمير، فكانت تطلب من الأمير إبعادهم وتغير بعض رجال الحرس وتعيين من تثق بهم ونشرت الجواسيس في القصر لمتابعة كل شيء يدور في أروقته، وساعدت زوجها في القيام بكل شؤون الإمبراطورية الداخلية والخارجية لتسد الطريق على النبلاء والأثرياء الذين كانوا يحلمون بالقفز إلى العرش والخلاص من زوجها والذين كانت تكرههم منذ قدومها مع أبيها وأمها وشقيقتيها إلى القسطنطينية وسخريتهم منها وسخطهم عليها حين كانت ترقص في الملاهي والمسارح.

لم يكن كل همها الحفاظ على العرش لزوجها، بل إن هناك أيضا من كن أو كانوا يتمنون إزاحتها من جانبه لعلمهم بذكائها وقدرتها على إدارة الأمور، ولم تنس ذلك المحافظ الذي وسمها كفتاة ليل فقد أوحت لزوجها أن يقيله من منصبه، وأن يقرب قائد الجيش (بليزاريوس) إليه وكان وقتها منتصرا على الفرس واستدعاه الأمير ومنحه باسم الإمبراطور وسام الدولة ومنحه أيضا مساحة شاسعة من الأرض تقديرا له وتقديرا من الوطن لما قام به، وبهذا أمنت غدر (يوحنا الكبادوكي) المحافظ السابق حين يموت الإمبراطور.

بعد فترة مات الإمبراطور وخرجت القسطنطينية بكاملها لتشييع

جثمانه إلى مثواه الأخير وتولى رئيس مجلس الشيوخ كتابة الوثائق القانونية لإعلان الأمير جستنيان إمبراطورا على البلاد، ولم تكن (تيودورا) تكتفى بأن تكون الإمبراطورة زوجة الإمبراطور بل كانت تريد أن تكون شريكة في الحكم واستطاعت أن تقنع الإمبراطور، الجديد (زوجها) بذلك واقتنع هو لدورها في الحفاظ على العرش حتى تسلمه، وبالفعل طلب من رئيس مجلس الشيوخ ذلك" وتردد الرجل قليلا وهم (حنا كبادوكى) المحافظ السابق بالحديث لكن (بليزاريوس) قائد الجيش دوى صوته مخاطبا رئيس مجلس الشيوخ قائلا:

ماذا تنتظر يا سيدى لتنفيذ رغبة الإمبراطورة!!

ونفذ الرجل الأمر وكتب المراسيم القانونية وخرج قائد الجيش إلى شرفة القصر وصاح في الجماهير المحتشدة بصوت جهورى . . . مات الإمبراطور، وعاش الإمبراطور جستنيان وشريكته الإمبراطورة تيودورا .

بعد الجلوس على العرش تفرغ جستنيان ورئيس مجلس شيوخه إلى دراسة اللوائح والقوانين واستخلاص بعضها لضمها في موسوعة بعنوان (موسوعة قوانين جستنيان) وتفرغت هي لإدارة شؤون البلاد وأبدت في ذلك عبقرية نادرة، وأمسكت البلاد بيد من حديد ولم تنس للحظة واحدة الطريقة التي مات بها أبوها ليوفر لهم لقمة العيش وموت أمها متأثرة بمرضها دون أن تجد ثمن الدواء، وتشردها هي وأختيها بعد ذلك ولفظ المجتمع لهم ثم عملها في الملاهى والمسارح الشعبية ومعاناتها من الرعاع والصعاليك وانطلقت تنتقم من الجميع من نبلاء وأشراف وعامة الشعب، تصادر أموال النبلاء وتجبى الضرائب من العامة بينما الإمبراطور مشغولا بالقوانين واللوائح .

رغم كراهية الشعب لها وسخطهم عليها بسبب ما فرضته من

ضرائب إلا أنها كانت تكسب الجولات ولا تأبه بما تخسره في مشوارها .

كان (حنا الكبادوكى) المحافظ السابق يدبر بها المكائد ردا على عزلها له ، وذات يوم أطلقت شائعة بأن تيودورا أصدرت أمرا بتخفيض ما يصرف للشعب من القمح إلى الثلث ، وكان الشعب قد ضاق بما يفرض عليه من ضرائب ولم يعد مستعدا لأن يقطع عنه القمح أيضا ليجوع وتشبه فئة قليلة ، وكان أول الإنذارات حين نظر الحراس في الصباح إلى تمثالين للأمير فوجدودهما ملخطان بالطين ثم تعالت الهتافات "اللعنة على الإمبراطور والحرق للعاهرة".

كانت تلك هي المرة الأولى التي تثور فيها القسطنطينية ، وأصدرت تيودورا أوامرها لقائد الجيش يلبزاريوس أن يقضى على الثورة ، لكن الشعب الجائع انطلق من الشوارع ثائرا يحرقون ويسرقون القصور والمحال التجارية وتحولت المبانى الحكومية والقصور إلى شعلة مستعرة .

لم يستطع قائد الجيش فعل شيء بينما انطلقت الجموع إلى القصر الإمبراطورى بقيادة كبادوكى يقتحمون الأسوار وانتبهت الأميرة النائمة إثر إصابتها بالسرطان تسأل عن ذلك الهدير المنبعث من كل مكان حول القصر فأخبرتها وصيفتها العجوز: إنه الشعب الخائن جاء يطلب الطعام ، وبدلا من الهرب طلبت من وصيفتها وأحد رجال القصر أن يساعداها للذهاب إلى الشرفة حيث وقفت مستندة إليهما لتخاطب الجماهير الغاضبة في هدوء الذين أصابتهم الدهشة لجرأتها ، وسألتهم عن طلباتهم فأخبروها أنهم يريدون الخبز ، فردت عليهم في هدوء لكم ما تريدون ، وليس الخبز فقط بل سيقام لكم حفل صاخب في الملعب الكبير ، وتحولت الهتافات التي كانت تنادى بسقوط العاهرة إلى هتافات بحياة الإمبراطورة الكريمة .

وفى اليوم الثانى كان الشعب يرقص في حفل صاخب حتى

منتصف الليل وعاد الإمبراطور والإمبراطورة إلى القصر واستمر الناس بما فيهم قادة المظاهرات حتى كانت الفقرة الأخيرة من الحفل حيث تقدم رئيس الحرس وأحاط الجنود بالمحتفلين في أقواس وانهالت السهام القاتلة على الشعب الأعزل المذهول من المفاجأة بينما الإمبراطورة تجلس على سريرها تبتسم رغم مرضها لانتقامها من الشعب الذي تجرأ وهتف ضدها، لكن دهاؤها ومكرها لم يمكناها من الانتصار على السرطان الذي طلت تعانى منه أشد العذاب حتى ماتت.

* * *